أيهما أفضل السمع أو البصر[1]

أ. د. مكي الحسني[*]

اختلف ابن قتيبة وابن الأنباري في السمع والبصر أيهما أفضل؟

ففضل ابن قتيبة السمع ووافقه طائفة واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) جاءت صيغة عنوان هذا المقال كما في «بدائع الفوائد» لابن قيّم الجوزية (ت٧٥١هـ) الذي نشرته (دار الحديث) بتحقيق (سيّد عِمران وعامر صلاح). ومن المعلوم أن الأفصح استعمالُ (أيّ) الاستفهامية بلفظٍ واحد للمذكر والمؤنث كما وردت في القرآن الكريم، وقد تُطابق تذكيرًا وتأنيثًا. قال الكُميت:

بأيِّ كتابٍ أم بأيَّة سُنّةٍ ترى حُبَّهم عارًا عليّ وتحسَبُ؟

إنّ (أيّ) الاستفهامية هي لِطلب **تعيين أحد الشيئين** أو الأشياء. قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]. وقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩]. أمّا الهمزة فَلَها عدة استعمالات، منها طلب التعيين. قال تعالى: ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

وأما الأداة (هل) فهي - بتعبير النحاة - لِطَلَب التصديق، أي العلاقة بين جزأي الجملة (رُكنَيْها: المُسند والمسند إليه).

لعلّ ما قُلتُه آنفًا قد فات محققَيْ كتاب ابن القيِّم، وربما كان الخطأ من الناشر، فصواب عنوان المقال: **أيُّهما أفضل السّمْع أم البصر؟**

﴿تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢-٤٣]، قال: فلما قرن بذهاب السّمع ذهابَ العقل، ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر كان دليلًا على أن السمع أفضل.

قال ابن الأنباري: هذا غلط، وكيف يكون السمع أفضل وبالبصر يكون الإقبال والإدبار، والقرب إلى النجاة والبعد من الهلاك، وبه جمال الوجه وبذهابه شَيْنُه، وفي الحديث[٢] **(من ذهبت كريمتاه فصبر واحتسب لم أَرْضَ له ثوابًا دون الجنة)**، وأجاب عما ذكره ابن قتيبة بأن الذي نفاه الله تعالى مع السمع بمنزلة الذي نفاه عن البصر، إذ كأنه أراد إبصار القلوب، ولم يرد إبصار العيون، والذي يبصره القلب هو **الذي يعقله**، لأنها نزلت في قوم من اليهود كانوا يستمعون كلام النبي ﷺ فيقفون على صحته ثم يكذبونه فأنزل الله فيهم: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾، أي: المُعرضين ولو كانوا **لا يعقلون** ومنهم من ينظر إليك بعين نَقصٍ **أفأنت تهدي العمي**، أي: المُعرضين ولو كانوا **لا يبصرون**، قال: ولا حجة في تقديم السمع على البصر هنا، فقد أخبر في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]، قلت: واحتج **مفضلو السمع** بأن به ينال غاية السعادة مَن سمع كلام الله وسماع كلام رسوله، قالوا: وبه حصلت العلوم النافعة. قالوا: وبه يُدرك الحاضر والغائب، والمحسوس والمعقول، فلا نسبة لمُدرك البصر إلى مُدرك السمع، قالوا: ولهذا يكون فاقدُه أقلَّ علمًا من فاقد البصر، بل قد يكون **فاقد البصر** أحد العلماء الكبار بخلاف، **فاقد صفة السمع** فإنه لم يعهد من هذا الجنس عالم البتة. قال **مفضلو البصر**، أفضل النعيم النظر إلى الرب تعالى

(٢) وهو صحيح، أخرجه الترمذي في كتاب «الزهد» باب: «ما جاء في ذهاب البصر».

وهو يكون بالبصر والذي يراه البصر لا يقبل الغلط بخلاف، ما يُسمع فإنه يقع فيه الغلط والكذب والوهم فمدرَك البصر أتم وأكمل، قالوا: وأيضًا فمحلّه أحسن وأكمل وأعظم عجائبَ من محل السمع وذلك لشرفه وفضله.

قال شيخنا: والتحقيق أن السمع له مزية والبصر له مزية، فمزية السمع العموم والشمول، ومزية البصر كمال الإدراك وتمامه، فالسمع أعمّ وأشمل، والبصر أتمّ وأكمل، فهذا أفضل من جهة شمول إدراكه وعمومه، وهذا أفضل من جهة كمال إدراكه وتمامه[٣].

* * *

(٣) هذا المقال منقول من كتاب «بدائع الفوائد» لابن قيّم الجوزيّة، ما عدا التعريف بابن قتيبة وابن الأنباري.

ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ) أديب لغوي فقيه محدث مؤرخ عاش في زمن الدولة العباسية له العديد من المصنفات أشهرها: عيون الأخبار، أدب الكاتب، غريب القرآن، غريب الحديث.

ابن الأنباري: أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد الأنباري (٢٧١-٣٢٨هـ) مقرئ نحوي، له العديد من المصنفات أشهرها: كتاب الأضداد، الزاهر في معاني كلمات الناس، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات.